شخصية المثقف في رواية "الأشجار واغتيال مرزوق" لعبد الرحمان منيف

وفاء غالية- باحثة دكتوراه - د. نور الدين سيليني

جامعة محمد بوضياف بالمسيلة – الجزائر

Résumé :

la personnalité de l'intellectuel dans l'œuvre de « les arbre et l'assassinat de Merzoug » c'est une personnalité qui vive des crises redondantes et rassemblantes aux crises vécues par l'intellectuel arabe, en général, dont nous trouvons l'intellectuel combattre pour hbérer sa société et lui éclaircir la vie.

Et il consacre pour atteindre ce but tons ses efforts intellectuels, mentaux et corporels, et enfun il se trouve devant une force menaçant, qui a pour but de l'entraver psychiquement et matériellement. Le narrateur « Abd Errahman Monif » a pu mettre sons lumière cette crise d'après les quatres dimension de sa personnalité intellectuelle « Mansour Abd Essalem ».

الملخص:

إن شخصية المثقف في رواية" الأشجار واغتيال مرزوق" هي شخصية تعيش أزمة متكررة ومشابهة للأزمات التي يعيشها المثقف العربي عموما؛ حيث أننا نجد المثقف يصارع من أجل تحرير مجتمعه وتنويره، ويكرس في سبيل ذلك كل مدخراته الفكرية والعقلية وحتى الجسدية، وفي الأخير يجد نفسه في مقابل قوة عاتية كل همها هو تصفيته البدنية أو النفسية، وقد استطاع الروائي "عبد الرحمان منيف" إبراز تلك الأزمة من خلال الأبعاد الأربعة لشخصيته المثقفة "منصور عبد السلام".

الكلمات المفتاحية : المثقف ، الشخصية ، الرواية ، السلطة، منصور عبد السلام

إن تجربة عبد الرحمان منيف الروائية تجربة فريدة من نوعها، فهي تجربة المثقف الذي انتقل من السياسة إلى الرواية، ودخل إلى عالمها محملا بأثقال من العالم السياسي، فكانت له المتنفس والملاذ، ووسيلة التعبير الأكثر حرية فبدلا من الحزب السياسي أو العمل السياسي المباشر، من الممكن أن تكون الرواية وسيلة تعبير، وهكذا جاء، وربما بالمصادفة، إلى الرواية، ومنها بدأت تجربته الروائية عن طريق المصادفة، ولكن سرعان ما تحولت الرواية على يده إلى قراءة للمجتمع

وتعبير عن همومه وأحلامه، فأصبحت أشمل وأفضل من الخطاب السياسي، ذلك أنها أكثر تأثيرا منه في نفوس المتلقين.

وتعد هذه التجربة الروائية غنية بحضور المثقف ؛ إذ أننا نجده في أغلب رواياته، فهو "منصور عبد السلام" في رواية "الأشجار واغتيال مرزوق" ، وهو "رجب إسماعيل " في "شرق المتوسط" ، وهو كذلك "زكي نداوي" في "حين تركنا الجسر"، و"طالع العريفي" و"عادل الخالدي" في "الآن هنا أو شرق المتوسط مرة أخرى"، وكل أولئك كان هدفهم واحد، هو تغيير الوطن العربي فكرا وسلطة، فمثقف عبد الرحمان منيف دائم العداء للسلطة، ناقم عليها وعلى أصحابها.

أولا: مفهوم المثقف

كما جرت العادة في البحوث الأكاديمية أن نبدأ بالمفهوم اللغوي، ومن ثمة الاصطلاحي، بغض النظر إن كانت هذه العادة حسنة أم لا، المهم أن نؤصل للمصطلحات ، ونحاول إيجاد جذور مفاهيمية لها في التراث العربي، من باب الاستئناس لا غير، وعليه فان مادة "ث ق ف"في معاجم اللغة العربية أتت في مضمونين[1]، الأول حسي، والآخر ذهني تجريدي، أما المضمون الحسي فقد استخدم في جانبين، هما:

أ–الأشياء الجامدة ،كالسيف والرمح، فقد استخدم العرب عبارة"ثقف الرمح" بمعنى قوم اعوجاجه، واشتقوا الثقافة كمهنة للعمل بالسيف، وسموا صاحبها المثاقف.

ب–الدلالة على المهارة في القتال، فالرجل يوصف بالثقف إذا كان جيد الحذر في المعركة، وسريع الطعن.[2]

وأما المضمون الذهني لمادة "ثقف" فيفيد الفطنة والذكاء، وسرعة التعلم، فكانوا يسمون الرجل بالمثقف إذا كان فطنا ذكيا، سريع الفهم، "ثقف الرجل ثقافة أي صار حاذقا خفيفا..."[3] و"غلام لقن ثقف اي ذو فطنة وذكاء والمراد انه ثابت المعرفة بما يحتاج إليه، وفي حديث أم حكيم بنت عبد المطلب: إني حصان فما اكلم، وثقاف فما اعلم"[4]. من خلال ما سلف من التعاريف نخلص إلى أن العرب قديما ، إنما كانوا يطلقون اسم "المثقف" على الرجل الذي تتوفر فيه مهارة القتال والمنازلة، وكذا مهارة الفهم وحدة الذكاء.

وقد تطور مدلول مصطلح "مثقف ابتداء من القرن السادس عشر، لتفيد معنا مجازيا، وهو تنمية بعض القدرات العقلية بالمران[5] ،" ثم لتدل بعد ذلك على مجموع المعارف المكتسبة التي تمكن من تنمية روح النقد والقدرة على الحكم"[6]، من هنا نجد أن مصطلح الثقافة في الفرنسية قد

تطور دلاليا من معنى الزراعة، واستغلال خيرات الأرض، إلى تدريب الفكر وجني ثماره؛ أي من إنتاج الأرض إلى نتاج الفكر ، وسرعان ما وقع التأكيد على أن مدلولها في ميدان الفكر يجب أن ينصرف إلى فعل الإنتاج أكثر من الإلحاح على النتاج نفسه، بمعنى أن المقصود منها يجب أن يكون ما يكسبه العقل من قدرات على التفكير السليم والمحاكمة الصحيحة، بفضل المعارف التي يتلقاها، والتجارب التي يخوضها، لا ما يضمه الفكر بين طياته من معارف ومعلومات.

تلك كانت –على العموم– الدلالات الرئيسة لمصطلح "ثقافة" ،كما بدأت تروج في الخطاب العربي منذ أواخر الخمسينيات من القرن الماضي، ومع ذلك فإنه لابد من القول أن ما كان يشغل الفكر العربي آنذاك ليس المعنى المعرفي الأكاديمي، بقدر ما كان يشغله مفهوم آخر أفرزته عمليات تصفية الاستعمار ؛ ونعني بذلك مفهوم"الثقافة الوطنية" ؛حيث أن المثقف آنذاك كان يحمل هم تمثيل ثقافة وطنه خاصة، والثقافة الإنسانية عامة، ويشارك في تنمية هذه وتلك بشكل من أشكال المشاركة[7].

أما بالنسبة لمفهوم مصطلح "المثقف" ، فقد اختلفت الآراء والتصورات النظرية حوله، ومرد ذلك الاختلاف إلى تباين تعريفات المثقف من لغة إلى أخرى، في اللغات الأوروبية المعاصرة، وبالتالي تباين المفاهيم المترجمة عنها، فهناك من يعتقد أن المثقف هو كل من يحمل صفات ثقافية وعقلانية مميزة تؤهله للنفاذ إلى المجتمع و التأثير فيه، مثل "علي الشريعتي" الذي يرى أن مصطلح المثقف "كلمة تطلق على فرد من طبقة أو شريحة معينة تقوم بعمل عقلي..."[8]، إن "علي الشريعتي" في تعريفه هذا يخرج العمال اليدويين من دائرة المثقفين، ويجعلها حكرا على أهل الفكر، وها هو ذا يؤكد على ذلك في قوله:"إن شريحة أهل الفكر أو التي نسمي أفرادها بالمثقفين المؤلفة من مجموعات مختلفة من المجتمع تقوم بأعمال عقلية..."[9]، ويسانده في ذلك "ريمون ارون"، الذي يرى أن "المثقف هو رجل الأفكار ورجل العلوم، وهو الذي يؤمن بنظرة معينة تجاه الإنسان والفكر"[10]. ويرى أيضا أن الشعراء والرسامين يمثلون الحلقة الصغرى للمثقفين، لأنهم يعيشون من مواهبهم وعن طريق استخدامها، وكذلك الفنانون الذين يظلون يجترون أفكار الماضي دون أي إبداع جديد،وأساتذة الجامعات، ورجال البحث في مختبراتهم [11]. كل هؤلاء عنده يشكلون الهيئة العامة التي تقوم على شئون المعرفة والثقافة في الوقت الحاضر، وهم من المثقفين. لكن كلا المفكرين اشترطا صفة النفعية في نتاج أصحاب الفكر حتى يستحقوا أن نطلق عليهم لقب "مثقفون" ؛ بمعنى أنه يجب على المفكر أن يشتغل بفكره ويسخره لفائدة المجتمع الذي يعيش فيه، وأن لا يبقى مجرد مستهلك للثقافة غير منتج لها.

هذا ما يذهب إليه "جيرار ليكزاك"، في قوله:"المثقفون هم هؤلاء الذين ينتجون آثارا، الذين يبدعون، الذين يجددون في المجال الثقافي ،الجمالي، الإيديولوجي، الخ...أما إعادة إنتاج واستهلاك أو(ملاءمة) الأثر فهي عمل المستهلكين البسطاء..."[12].

أما "برهان غليون" فيرى أن المثقف هو من ينتمي إلى طبقة اجتماعية فاعلة في المجتمع بحيث تتميز عن غيرها بتفكيرها العالي و الناقد، وتدخل في عملية الصراع الاجتماعي و السياسي، وفي النهاية يكون تأثيرها واضحا، إما من خلال مشاركات قوية لصنع السياسة و القرار السياسي، أو من خلال أعمال فكرية كبيرة تؤثر في الناس و المجتمع فكريا وثقافيا ومعنويا"[13].

وكذلك الأمر بالنسبة لعزمي بشارة الذي يقول عن مصطلح مثقف أنه :" صفة أطلقت على العاملين في مجال الفكر والأدب تحديدا ، والذين اتخذوا مواقف من الشأن العام..."[14].

ويرى "عبد السلام الشاذلي" أن المثقف بالإضافة إلى أنه رجل علم ومعرفة،فهو يكون مع نظرائه –المثقفين– طائفة أو فئة ذات ملامح وأبعاد عامة في مجتمع من المجتمعات الإنسانية، وهذه الملامح و السمات، هي: "التفكير العلمي" و"الرومانسية"؛من حيث هي تعبير عن النزعة الفردية لدى المثقف، ومن حيث قيمتها الأصلية بالنسبة للفنانين خاصة، والسمة الثالثة هي "التمرد" أو "الثورة"، وأخيرا "الشعبية"، وهي نزعة ذات أهمية بالغة في تكوين نفسية المثقفين[15]. فهنا يضيف عبد السلام الشاذلي إلى جانب التفكير العلمي –الذي يعد الملمح الرئيس للمثقف– ملامح أخرى ذات أهمية بالغة في تكوين نفسية المثقف –من وجهة نظره– وهي: الرومانسية (النزعة الفردية)، التمرد أو الثورة، الشعبية، وفي الحقيقة هي نزعات صاحبت المثقف منذ صحوته –إن صح التعبير– على يد الحملة الفرنسية إلى نهاية القرن التاسع عشر.

في حين تتسع كلمة مثقف عند الفيلسوف الإيطالي "أنطونيو غرامشي" لتضم كل إنسان يقوم بفعل التفكير؛ أي جميع الناس مثقفون من وجهة نظر غرامشي بنسب مختلفة لكنهم لا يملكون جميعا الوظائف الاجتماعية للمثقفين، والتي لا يمكن أن يمارسها إلا المثقفون أصحاب الكفاءات العالية، والذين يمكنهم التأثير في الناس، ونجد التأكيد على هذا الطرح في قوله: "إن المثقفين ، بما هم مثقفون لا يشكلون طبقة مستقلة، بل إن كل مجموعة اجتماعية لها جماعة من المثقفين خاصة بها، أوهي تعمل على خلفها..."[16]. من هنا جاء تقسيم غرامشي للمثقفين إلى "مثقف تقليدي"، و آخر" عضوي" ، فالتقليدي هو الذي يرتبط بالمجموعات القديمة والطبقات الآيلة للزوال، ويكون مثقفا عضويا "عندما يساهم في تعبئة المجموعة الاجتماعية الصاعدة، وبلورة مطامحها وأهدافها، وبعبارة أخرى؛ إن المثقفين إما أن يكونوا أدوات للهيمنة على مستوى المجتمع المدني، الهيمنة التي

تمارسها المجموعة الاجتماعية المسيرة على مجموع الجسم الاجتماعي، وإما يكونوا أداة من أدوات السيطرة على مستوى المجتمع السياسي"[17].

من خلال جل التعاريف السابقة نخلص إلى أن المثقف هو إنسان فكر ومعرفة غالبا ما يشغل وظائف تعتمد على الفكر، تساهم بطريقة أو بأخرى في خدمة المجتمع ونشاطه، فهو مفكر منتج للثقافة، مبدع، فعال.

وللمثقف دور قيادي، هو المشاركة الفعالة في الحياة العلمية، وبنائها وتنظيمها، ومن دون هذا الدور سيتحول إلى شبه مثقف مفرغ من كل الأهداف النفعية، وعليه" يجب على المثقف أن يحول الكلام إلى فعل، والنظرية إلى ممارسة ليتمكن من تحقيق الغاية البعيدة المنوطة به، ألا وهي تغيير عقلية المجتمع وتوعيته، وتعويده على تحكيم العقل والمنطق، بدل الأهواء والمصالح الآنية"[18].وكذلك تعد الوساطة الفكرية من أبرز مهام المثقف في الوقت الراهن؛ "إذ أن العالم يتعولم اليوم من جراء الاتصالات ومضاعفة إمكانية التواصل،فالاتصال يحتاج إلى وسط، والتواصل لا يتم من دون توسط...من هنا فإن المثقف بوصفه يشتغل بالفكر ويحترف الكلام؛ إنما يشكل وسيطا بامتياز، وبالطبع فهو لا يسعه أن يمارس دوره هذا بصورة فعالة إلا إذا كان منتجا وخلاقا في مجاله الخاص، أي مجال الفكر وعالم المعنى وصناعة الكلمة"[19]. وهذا لا يعني أن يقتصر على العلم والمعرفة وإنتاجهما فقط، بل عليه أن ينزل إلى المجتمع ويندمج في ثناياه حتى يتمكن من معرفة علله، ويحاول علاجها، وذلك من خلال "الانشغال بالقضايا العامة، والمشاركة فيها بالرأي و الموقف، والانحياز للطبقات الاجتماعية الكادحة والمهمشة..."[20]. إذا فالمثقف الحقيقي لا"يتحدد وضعه بنوع علاقته بالفكر والثقافة، ولا لكونه يكسب عيشه بالعمل بفكره وليس بيده، بل يتحدد وضعه بالدور الذي يقوم به في المجتمع كمشرع ومعترض ومبشر بمشروع، أو على الأقل كصاحب رأي وقضية "[21]، وعليه فان دور المثقف الحقيقي هو نقد المجتمع، بوضع يده على الجروح الدامية والمزمنة فيه، فيحاول علاجها عن طريق التحليل و العمل، وتقديم الاقتراحات والمشاريع اللازمة والمناسبة لتقدم المجتمع وتطوره، فيكون بذلك قائدا لمجتمعه خادما له.

نشأة مصطلح المثقف:

تعد قضية دريفوس* هي المنشأ الرئيس لمصطلح المثقف ، حتى أن الكثير يرى أنها شهادة ميلاد للمثقف في تاريخ فرنسا الحديث، فهاهو ذا محمد الشيخ يقول:" للمثقف كما سنرى شهادة ميلاد ،إنه وليد قضية اجتماعية وسياسية شهيرة عرفت في تاريخ فرنسا الحديث باسم "قضية

دريفوس" [22]، ولقد جاءت هذه القضية متزامنة مع الوضع المعقد لليهود في فرنسا، وبما أن دريفوس ذو أصول يهودية، وقد اتهم وسجن دون أدلة كافية تثبت تورطه في الخيانة، فقد تحولت هذه القضية إلى فتيل أوقد قضية سياسية كبرى عصفت بالحياة الاجتماعية و السياسية الفرنسية وبالجمهورية الثالثة ما يزيد عن عشر سنوات، وقسمت الشعب الفرنسي والنخبة المثقفة إلى مناصر لدريفوس، ومعاد له.

ولقد صاحب هذا الصراع نزول الأدباء والمفكرين إلى الساحات العمومية مطالبة بدرء الظلم عن الضابط، وهنا ظهر أول بيان في تاريخ الفكر الغربي وقعته جماعة من رجال الأدب والفكر، تسمي نفسها جماعة المثقفين، وهو ما يسمى ب"بيان المثقفين"، وقد وقعته أسماء كبرى مثل "إميل زولا"و"أناتول فرانس" ،و" مارسيل بروست" و"ليون بلوم" [23].

وبعدها دخل مصطلح "المثقف" إلى الساحة العربية عن طريق الاتصال بالغرب، من خلال البعثات العلمية التي شنها المصريون عليه، بعد حملة نابليون الصادمة لهم ، ومن خلال هذا الاتصال"تأثروا كثيرا برخاء الغرب وتقدمه، وأقاموا مقارنة بين مظاهر القوة والرخاء في الغرب ، وبين مظاهر الضعف والفقر والتخلف التي يعانيها المجتمع العربي في ظل الاحتلال العثماني ، وقد خلصوا من هذه المقارنة إلى ضرورة إحداث التغيير في المجتمع وعلى الأصعدة كافة"[24].

و الحرب العالمية الأولى تغيرت نظرة المثقف للغرب وحضارته، ر " ولقد افرز هذا الوضع الجديد فئتين من المثقفين العرب، الأولى رفضت الغرب على الصعيد السياسي وتقبلته على الصعيد الحضاري، وإما الثانية فقد رأت أن رفض الغرب أصبح واجبا على الصعيدين السياسي والحضاري معا"[25]، من هنا تبلورت شخصية المثقف العربي ضمن منظومة الفكر الغربي، بالإضافة إلى التراث العربي، في ظل التيارات الفكرية الوافدة إليها من الآخر، كالوجودية والماركسية والفرودية، وكذا الأنظمة السياسية وخلفياتها الفلسفية، كالاشتراكية والرأسمالية، بمعنى أن المثقف العربي نشأ في ظل النزاعات والصراعات بين الوافد والرافد.

ثانيا: دراسة شخصية المثقف "منصور عبد السلام"

1-مفهوم الشخصية الروائية:

لطالما كانت الشخصية الروائية من أهم عناصر الرواية إلى جانب السرد والفضاء، و" تتأتى للشخصية أهميتها كعنصر أساسي في الرواية من اهتمام الرواية بتصوير المجتمع الإنساني الذي يشكل فيه الشخص العمود الفقري، و القوة الواعية التي يدور في فلكها كل شيء في

الوجود..."[26]، بل إنها أكثر من عنصر هام من عناصر الرواية، إنها مدار السرد كله، وأصل الرواية ومنبت الحكاية، "فلا تكون العناصر الأخرى إلا مظاهرة لها ، أو راكضة في سبيلها ، أو دائرة في فلكها فلا الزمن زمن إلا بها ومعها، ولا الحيز حيزا إلا بها ، حيث هي التي تحتويه، فليس في حقيقة الأمر يكون إلا بتأثير منها ،ودافع من سلطانها ..."[27]،.

والشخصية الروائية تتشكل في الرواية انطلاقا من رؤية الروائي للعالم، لذالك قد تتشابه مع شخصيات حقيقية في طريقة تفكيرها أو حتى بنائها السيكولوجي، ولكن هذا لا يعني أنها شخصية حقيقية فعلا، بل هي شخصية" لا وجود لها خارج الكلمات لأنها ليست سوى (كائنات من ورق) ومع ذلك فإن رفض وجود أية علاقة بين الشخصية والشخص يصبح أمرا لا معنى له : وذلك أن الشخصيات تمثل الأشخاص فعلا ولكن ذلك يتم طبقا لصياغات خاصة بالتخيل "[28].

وقد نظر البنيويون إلى الشخصية الروائية على أنها مجرد فاعل له وظيفة نحوية في السرد مجردة من محتواها الدلالي" بل إن فليب هامون يذهب إلى حد الإعلان عن أن مفهوم الشخصية ليس مفهوم أدبيا محضا و إنما هو مرتبط أساسا بالوظيفة النحوية التي تقوم بها الشخصية داخل النص، أما وظيفتها الأدبية فتأتي حين يتحكم الناقد إلى المقاييس الثقافية والجمالية"[29]، وهنا أضاف الوظيفة الأدبية مسندة إلى الناقد بعودته إلى المقاييس الثقافية والجمالية.

أما "ميخائيل باختين" فقد نظر إلى الشخصية انطلاقا من رؤيتها للعالم ،" لذا لم يحفل باختين بالوجود المعطى للشخصية صراحة ، ولا بصورتها المعدة بصرامة ، وإنما عني بوعي البطل وإدراكه لذاته ، وبعبارة ثانية عني بكلمته الأخيرة حول العالم وحول نفسه"[30]، وهكذا يركز باختين على الوعي الذاتي للبطل ،كما أنه يركز كذلك على شرط الانفصال بين البطل والمؤلف، من حيث ذلك الوعي فيقول:"شرط ألا يصبح بوقا لإيصال صوت المؤلف...وأن يحافظ داخل العمل الأدبي على مسافة تفصل بين البطل و المؤلف ، وإن لم يقطع الحبل السري الذي يربط البطل بمؤلفه، فلن نجد أمامنا عملا أدبيا بل وثيقة شخصية"[31].

2-طريقة تقديم شخصية المثقف في "الأشجار واغتيال مرزوق":

قبل أن نفصل في طريقة تقديم عبد الرحمان منيف لشخصية "منصور عبد السلام"، لابد أن نعرج على الطرق المختلفة لتقديم الشخصيات الروائية؛ لأنه هناك طرائق كثيرة لبناء الشخصية في العمل الروائي،وتحديد وظيفتها في السرد ،نذكر منها:

2-1-تقديم الشخصية بصفة الثبات أو السكون: وهي الشخصية التي تظل ثابتة ولا تتغير طوال السرد

2-2-تقديم الشخصية بصفة النمو والتغير: وهي شخصيات ديناميكية تمتاز بالتحولات المفاجئة التي تطرأ عليها داخل البنية السردية ولا يكتمل ظهورها إلا بانتهاء الرواية[32].

2-3-تقديم الشخصية على أنها محورية :وهي التي تدور حولها أحداث الرواية والشخصيات الأخرى، وخاصة إذا كانت الشخصية بطلا مثقفا، فحتما سوف يدور في فلكها شخصيات مثقفة ثانوية.

2-4-التقديم الذاتي والتقديم الغيري: أما الذاتي فهو يظهر الشخصية وهي "تقدم ذاتها مستغنية عن كل الوسائط التي يمكن أن يسند إليها وظيفة نقل المعلومات المتعلقة بها إلى المتلقي حيث تعبر عن ذاتها ، وتحدد أفكارها وطموحاتها ، وبذلك تبلور موقعها الخاص بها في منظومة الحكي"[33]،أما التقديم الغيري، فهو أن تقدم شخصيات في الرواية لشخصيات أخرى.

2-5-تقديم الشخصيات انطلاقا من ماضيها، وخاصة إذا كانت مثقفة ، فقلما نجد شخصية مثقف لا يقف الروائي عند ماضيها.وهذا هو التقديم الذي اعتمده عبدالرحمان منيف في "الأشجار واغتيال مرزوق"؛ حيث قدم بطله "منصور عبد السلام "وهو في عربة القطار هاربا من الوطن الذي ترك في نفسه ندبات لا يمكن أن تزول، وجراحا من المستحيل أن تشفى ،ثم يعرف بعد ذلك البطل بنفسه من خلال استرجاع الماضي ،وهو يتذكر رسالته للسيد فرونسوا مارتان يطلب فيها العمل كمترجم للغة الفرنسية مع بعثة الآثار "زيادة على اتقاني اللغتين العربية والفرنسية، أشعركم أني حاصل على مؤهل عال في التاريخ من جامعة بروكسل وقمت بتدريس التاريخ في الجامعة ثلاث سنوات"[34]. سرح أستاذ الجامعة من عمله بسبب انتمائه السياسي و توجهاته الفكرية الإصلاحية، منصور عبد السلام ذلك المثقف الذي كان يحمل مخططا لتغيير مجتمعه، الرجل الذي كان يدافع عن الأخلاق والقيم و المبادئ، كان همه الوحيد هو قول الحقيقة والانتصار لها، ومحاسبة كل الذين يمتلكون زمام السلطة، ويزورون التاريخ ، ويتذكر منصور "ليس للجامعة علاقة بهذا الأمر، ولا نستطيع أن نفعل شيئا، التسريح من جهات عليا، من السلطة السياسية، مهمتي الوحيدة أن أبلغك"[35]، وهكذا تحول أستاذ التاريخ المعاصر في الجامعة إلى مشرد عاطل عن العمل. لقد حولت السلطة الديكتاتورية المثقف "منصور عبد السلام" إلى شخصية مأزومة مترددة من خلال ممارساتها القمعية.

3-أبعاد شخصية المثقف "منصور عبد السلام"

يرى محمد يوسف نجم أن للشخصية الروائية أبعاد مهمة تساهم في تشكيلها، وهي[36]:

1-البعد الفيزيولوجي أو المادي: ويحوي هذا البعد المظهر العام للشخصية، حيث يذكر فيه الراوي ملابس الشخصية وملامحها وطولها وعمرها ووسامتها ودمامة شكلها، وقوتها الجسمانية وضعفها ...الخ، إن لهذا الجانب أهمية كبيرة؛ لأنه يساعد القارئ على التعرف على الجوانب الأخرى.

2-البعد الداخلي أو النفسي: وهنا تظهر حالة الشخصية النفسية والذهنية، وهذا البعد خاضع إلى انعكاسات خارجية، سواء المتعلقة بالبعد الخارجي للشخصية أو البعد الاجتماعي.

3-البعد الاجتماعي: إن موقع الشخصية ضمن النسيج الاجتماعي له دور هام في تشكيلها، فبناء شخصية الأستاذ الجامعي يختلف عن بناء شخصية الفلاح مثلا، فكل شخصية منهما لها سلوكها وتصرفاتها الخاصة ، وكذا خطاب الأستاذ الجامعي حتما سيختلف عن خطاب الفلاح.

4-البعد الفكري: يشغل الجانب السياسي حيزا كبيرا في روايات الأدباء مهما كانت موضوعاتها، فقصص الحب مثل قصص الحرب، تدور أساسا حول موقف الإنسان من هموم مجتمعه وقضاياه الخاصة، وهي أساسا القضايا ذات الطابع الاجتماعي السياسي.

1-البعد الفيزيولوجي لشخصية المثقف "منصور عبد السلام"

يصف السارد منصور في الرواية بأنه إنسان عادي ، مثله مثل باقي البشر لا يتميز عنهم "منصور عبد السلام ،مدرس سابق في الجامعة، كلية الآداب قسم التاريخ، من حيث الأوصاف ليس له صفات محددة، وكما في جواز السفر العلامات الفارقة : لا شيء، يشبه عدد لا يحصى من الناس، ليس طويلا، وليس قصيرا، ليس نحيلا ولا مفرط السمنة، تجاوز الخامسة والثلاثين، يدخن ويشرب، ويقرأ كثيرا..."[37]،إن الصفات التي ذكرها السارد كلها غير مضبوطة، فهي بين بين تماما مثل صاحبها المتردد. أما في السابق فكان حازما له"عينان حازمتان وشفاه مطبقة...لقد عودهم وجهه عندما يقسو ويصفر هكذا..."[38].

إن حالة التردد والتأزم لا تقتصر فقط على أوصافه الخارجية، بل تتعداها إلى"البذلة الرمادية"، " وأنت يا منصور عبد السلام الرجل الضامر الذي يلف نفسه في بذلة رمادية ناصلة من فرط ما رأت من عيون الموظفين الكبار و رجال التحقيق..."[39]، حتى البذلة كانت رمادية اللون؛ أي بين الأبيض والأسود، ولطالما رمز هذا اللون إلى "التداخل والضبابية في كل شيء"[40]، وهذا ما يرمز إلى حالة التردد والاكتئاب التي يعيشها المثقف، كما يعبر اللون عن "الحياد وهو في أي مكان يحل فيه يدل على الهم والشقاء...ويدل على الرغبة الجامحة للانتصار على

الآخرين...ويرمز إلى الانتهاء واليأس والجمود إلا أنه يبقى لون الدهاء والتحذير من العمر والخوف "[41] ويتأكد لنا هذا عندما يصف منصور ذاته، بقوله:"لا حاجة لأن أقول لكم كل شيء عن نفسي ،فأنا شخص عادي لا أستحق اهتمام أحد، يوجد مثلي عدد لا يحصى من الناس، يشبهونني بملامح الوجه والثياب..."[42]،أو حينما يخاطبنا "عرفتم إذا أي شخص أكون، وتأكدتم أني إنسان عادي تماما، لا أحمل أي صفات خاصة ..." [43]، إن الصفات المترددة لمنصور عبد السلام، و لون بدلته الرمادية والتي ذهب لونها بسبب قدمها، و كذلك عدم وجود أية ميزات تفرقه عن غيره، كل ذلك يساهم في التأكيد على شخصية منصور المترددة و المأزومة.

2- البعد الاجتماعي لشخصية "منصور عبد السلام"

منصور عبد السلام هو رجل تجاوز الخامسة و الثلاثين كان أستاذا بالجامعة، ولم يتزوج بعد رغم أنه أحب أكثر من مرة،"وإذا أردتم أن تعرفوا أكثر من ذلك، أقول لكم :تجاوزت الخامسة و الثلاثين، غير متزوج، أحببت أكثر من مرة حبا جنونيا ما تزال آثاره تبدو في الحزن المرسوم على وجهي"[44]. لقد فشل منصور عبد السلام في أن يقيم علاقة الزواج مع أي امرأة، ذلك لأنه كان يحب بصمت، أحب رحاب و لم يتجرأ أن يعترف لها فتزوجت من صديقه هاني، رحاب لم تكن الأولى التي ضاعت منه "رحاب المرأة الثالثة التي تضيع مني والشعور بالأسف الذي أحسه الآن لم أحس بمثله عندما تزوجت ليلى، كان ذلك منذ وقت بعيد..كنت أقول أمام هذا القمر الزاهي أمام النجوم المتلألئة، أقسم أني سأجعلك أسعد مخلوق على وجه الأرض... يا ليلى، و تزوجت ليلى... و بعد ذلك بثلاث سنين تزوجت وداد..." [45]، و تأتي بعد ذلك كاترين، تلك الفتاة التي عاش معها أربعة سنوات في بلجيكا، أحبها وأحبته ولكنهما لم يتزوجا لأسباب اجتماعية، فهو ابن الشرق المتخلف على جميع الأصعدة، الشرق الذي يسوده الجوع و الظلم و القهر، و الدكتاتورية و السجن و التعذيب...أما هي فابنة الغرب المتقدم الديمقراطي، و قلما يكون اللقاء بين الشرق و الغرب غير محسوم بالفشل.

ثم يعود منصور إلى وحدته مرة أخرى"أنت يا منصور وحيد... وحيد لدرجة لا يمكن للإنسان أن يكون وحيدا هكذا.." [46]، ولكنه حاول الخروج منها وقرر أن يتقدم لخطبة ابنة الحاج زهدي، غير أن هذا الأخير وقف حجر عثرة في طريقه؛ لأنه طلب منه مهرا يفوق طاقته كأستاذ بالجامعة لا يملك إلا راتبه.

إن هذه الوحدة التي ترافق منصور ليست وليدة اللحظة، بل رافقته منذ كان صبيا و جعلته غريبا داخل ذاته و داخل المجتمع، وخلقت منه إنسانا فاشلا "أما كيف واجهت الحياة، و كيف

فشلت و امتلأ قلبي بالأسى، فإن ذلك لم يحصل فجأة، وإنما تسرب إلي على مهل، و منذ وقت طويل"[47]، فلقد نشأ منصور عبد السلام يتيم الأب؛ حيث أن أباه مات بعد نفيه لأسباب سياسية إلى الهند، ومن هنا بدأت مأساة منصور مزدوجة مع اليتم و السياسة.

ثم جاء دور السياسة حتى تصقل شخصيته باعتبارها عاملا من العوامل الاجتماعية؛ فلقد بدأ يخرج مع المظاهرات وهو لا يزال طفلا و يهتف: "يسقط بلفور... يسقط الخونة..."[48] ، ثم يسأل نفسه:"كيف هم الخونة؟ كيف ينامون ؟ كيف يتحدثون ؟ هل لهم عيون مستطيلة تحت الجبين ؟ هل لهم أسنان ؟ هل هم مثل باقي الرجال؟..."[49]، هكذا كان كل يوم يخرج هو و أقرانه في مظاهرات ويهتفون بهتافات لا يعرفون معناها غير أنهم تلقفوها من الكبار، ولكن سرعان ما بدأ خاله بلومه "يقولون أنك أصبحت سياسيا فوضويا.."، غير أن منصور لم يهتم لتأنيب خاله بقدر ما اهتم بكلمة "سياسة" "كنت أسمع الأشياء أول مرة، السياسة التي يتحدث عنها خالي تعني المظاهرة، إذا المظاهرة هي السياسة، وطلقت عالم الصغار، و بدأت دودة الرفض تنمو في داخلي، حتى أصبحت مثل ثعبان يلتف علي و يخنقني، ورفضت خالي و عالم المانيفاتورة و الأفكار الكئيبة التي يحلو له أن يرددها على مسامع أمي، و منذ ذلك الوقت تهت في العالم "[50]،فكان يقول لنفسه ارفض هذا العالم المجوسي التافه ولا تندمج فيه، وإن استطعت يجب أن تساهم بتغييره.

من خلال ما سبق نخلص إلى أن منصور المثقف كانت علاقته بالمجتمع علاقة عداء ونقد، ولهذا لم يعد بمقدوره أن يعيش فيه وهو يرى الظلم والجوع والقهر و يواجه ذلك كله بالصمت، لابد له أن يتكلم حتى ولو سجن، وقد سجن، حتى وإن ظلم وشرد، وقد فعلوا به ذلك، "كل شيء في بلادنا مقلوب على رأسه ويريد أنبياء من اجل أن يوقفوه على قدميه، وهؤلاء الأنبياء ليسوا موجودين، ولكن كل رجل يجب أن يحاول، نعم أن يحاول لعله يكون نبيا، نحن نحتاج إلى آلاف الأنبياء..."[51].

3-البعد النفسي لشخصية المثقف "منصور عبد السلام":

لقد عاش منصور عبد السلام طفولته في ظل الهزائم السياسية التي دخلت في نسيج روحه، وشكلت شخصيته فيما بعد، شخصية مأزومة مترددة ناقمة على المجتمع العربي وحكوماته، شخصية تريد أن تدمر كل شيء، ولا تترك حجرا فوق حجر في أرض الوطن "آه لو امتلك السلطة، لو امتلكها يوما واحدا لدمرت العالم. العالم لا يحتاج إلا للتدمير.لقد فسد كل شيء فيه، تفتتت خلاياه، تعفن، لم يعد ممكنا إصلاحه أبدا. يجب أن يدمر نهائيا، لعل عالما جديدا يقوم على

أنقاضه. لعل بشرا من نوع جديد يأتون من صلب عالم آخر، لكي يطهروا هذه الأرض التي تعلوها طبق سميكة من القذارة والتفاهة"[52].

منصور عبد السلام ذلك المثقف الناقم على السلطة وسياستها القمعية، الثائر ضد الخونة، الذين زوروا التاريخ وظللوا الناس، أراد أن يظهر الحقيقة، بأن يدرس التاريخ الحقيقي للطلاب، أراد أن يوضح لهم أسباب الهزيمة المخزية للعرب، ولكن الأمر لم يكن بالسهل، فلقد سرح من الجامعة وشرد، ومنعت عنه كل مساعدة، ذلك مما عمق إحساس التأزم لديه.

لقد أصبح منصور شخصية منكسرة ، خائفة من كل شيء حتى من رجال الجمارك عندما كانوا يسألونه في عربة القطار؛ حيث كانت إجاباته المنطوقة تتداخل مع المونولوج الداخلي، " ما هي الصنعة التي كنت تعمل فيها ؟(مرة أخرى ماذا اعمل؟ هل أقول حراث؟ بائع ملابس قديمة؟ ماذا لو قلت ماسح أحذية؟ ماذا تقرأ اليوم يا شوكت؟ أتعرف يا أستاذ أن كتاب بائعة الخبز من أجمل الكتب التي قرأتها...شوكت ماسح أحذية ويقرأ...هل من العيب أن أقول له إني ماسح أحذية؟)–كنت أستاذا بالجامعة"[53].

ومع تقدم السرد تنمو شخصية منصور عبد السلام وتتضح ملامحها أكثر، فكلما تسارع نبض السرد كلما اقترب مثقفنا من الجنون، كل شيء يوحي بذلك، تداخل الخطاب الداخلي مع الخطاب الخارجي، وتداخل الماضي مع الحاضر عن طريق تقنية الاسترجاع، وكذا تداخل السرد فيأتي مرة بضمير المتكلم، ومرة أخرى بضمير المخاطب ومرة بضمير الغائب، وحتى الشمس والقطار يدفعان منصور نحو الجنون "الشمس تتدفق مثل شلال تغمر العربة ويرتفع خيط من الغبار وأنت تحرك قدمك مثل إبليس، تتصور أن القدم شيء لا صلة له بالجسد، افعل مثلما يفعل المجانين، حرك قدميك، حرك ذراعيك، ستكتشف أشياء جديدة، مذهلة، وسوف تقودك اكتشافاتك يوما إلى حديقة السرو"[54].

منصور عبد السلام صاحب الوعي والفكر، حارب من أجل الحقيقة، من أجل الحرية والشرف، ولكنه اضطهد وشرد، فاخلد إلى ذاته وتقوقع بداخلها، وتحول الصراع من الخارج أي (منصور/السلطة) إلى صراع الداخل (منصور/نفسه)، لكن الصراع الأخير خلف دمارا مهولا في نفسه ، انتهى به الأمر إلى أن أطلق النار على شبحه في مرآة الفندق، ثم أخذ إلى مستشفى المجانين.

4–البعد الفكري لشخصية المثقف "منصور عبد السلام":

كان هذا البعد مدار الصراع في الرواية؛ إذ أنه السبب الرئيس في تهميش منصور عبد السلام وقمعه من قبل السلطة، وتتضح معالم هذا البعد من خلال مكانة منصور العلمية باعتباره أستاذ التاريخ المعاصر بالجامعة، وكذلك من خلال توجهه السياسي المعارض للسلطة؛ فلقد رفض ذلك التزوير الذي طال التاريخ العربي وشوه الحقيقة، وخاصة فيما يتعلق بالقضية الفلسطينية وأسباب الهزيمة، فلطالما نظر إلى التاريخ على أنه قصة طويلة وحزينة تمتلئ بالأكاذيب، وكان يقول لطلبته:" لو ألقينا نظرة على التاريخ المعاصر ،وعد بلفور، الرصاصة الأولى، الثورات، الهزائم، أين هي الحقائق؟ أين هي مصادر التاريخ؟ العادة الإنكليزية تجعل الوثائق، حتى السرية، ملكا للناس بعد مرور خمسين سنة على صدورها، أما تاريخنا ..ما هو تاريخنا؟ احتقار لكل حقيقة ، تزويرها، قلبها؟"(55)

كما كان للكتب الدور الرئيس في بلورة فكر منصور الثوري؛ حيث أنها ساهمت بشكل كبير في النهاية التي وصل إليها، حتى أنه كان يقول لنفسه "ألا تعترف أن الكتب هي التي عذبتك وخلقت بينك وبين الناس هذه الفجوة الكبيرة؟ "(56)، ولعل الكتب التي كان يحملها منصور معه وهو في عربة القطار، لتنبئ عن جانب كبير من بعده الفكري، فنجد مثلا "ملحمة جلجامش" ،"التنقيب عن الماضي"، "الجيل الخائب"، "فكر كارل ماركس"، "مقدمة ابن خلدون" وغيرها من الكتب التي تحمل طابع الصراع من أجل البقاء والحرية والمساواة.

إن فكر منصور الثوري الذي كرسه من أجل إظهار الحقيقة، وتصحيح التاريخ سبب له العديد من المشاكل مع السلطة، حتى أنه أصبح يتساءل عن الخطأ الذي وقع في حياته وأدى به إلى هذه النهاية الكئيبة، "لو أني درست مادة أخرى غير التاريخ المعاصر، هل كنت سأواجه نفس المصاعب والنهاية الكئيبة التي وصلت إليها؟"(57).

الهوامش:

1-محمد رياض وتار، شخصية المثقف في الرواية العربية السورية، دط،منشورات اتحاد كتاب العرب،1999،ص:.11

2-محمد رياض وتار، شخصية المثقف في الرواية العربية السورية، ص:.11

3-4- ابن منظور، لسان العرب، ج2،تحق: ايمن محمد عبد الوهاب، ط3، دار احياء التراث العربي، لبنان، 1999، ص:112.

5-6-محمد عابد الجابري، المثقفون في الحضارة العربية، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، 1995، ص:.22

7-إدوارد سعيد، خيانة المثقفين، تر:أسعد الحسين، دط، دار نينوى، سوريا، 2011،ص:36.

8-علي الشريعتي ،مسؤولية المثقف، تر:إبراهيم الدسوقي شتا، ط1، دار الأمير ، لبنان، 2005، ص:.50
9-المرجع نفسه، ص:.51
10-ريمون ارون ، أفيون المثقفين، دط، دار الكتاب العربي، بيروت، ص:.176
11-جيرار ليكراك، سيسيولوجيا المثقفين،تر: جورج كتورة، ط1،دار الكتاب الجديدة المتحدة، لبنان، 2008،ص:.24
12-برهان غليون، النخبة والشعب،ط1، دار بتر للنشر والتوزيع، سوريا، 2010،ص:.20
13-عزمي بشارة المثقف والثورة،دط، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، ص:.9
14-عبد السلام الشاذلي ،شخصية المثقف في الرواية العربية الحديثة بمصر(1834-1952)، دط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2009، ص:25-.26
15-انطونيو غرامشي، رسائل السجن، تر:سعيد بوكرامي، ط1، دار طوى، لندن، 2014،ص:.56
16-محمد عابد الجابري، المثقفون في الحضارة العربية، ص:.20
17-18-محمد رياض وتار، شخصية المثقف في الرواية العربي السورية،ص:.12
19-علي حرب،أوهام النخبة أو نقد المثقف،ط3،المركز الثقافي العربي،الدار البيضاء،2004، ص:.146
20-عبد الإله بلقزيز، نهاية الداعية (الممكن والممتنع في أدوار المثقفين)، ط2، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، 2010، ص:.10
21-محمد عابد الجابري ، المثقفون في الحضارة العربية،ص:24.
*-ألفريد دريفوس، ضابط فرنسي برتبة قبطان، اتهم بتسريب معلومات عسكرية إلى ألمانيا، وأدانته المحكمة سنة 1894 على أنه جاسوس وعوقب على إثر ها.
22-محمد الشيخ المثقف والسلطة، دراسة في الفكر الفلسفي المعاصر، ط1، دار الطليعة، بيروت، 1991، ص:.15
23-المرجع نفسه، ص:.17
24-25- محمد رياض وتار ، شخصية المثقف في الرواية العربية السورية، ص:18-19.
26- عبد الإله بلقزيز، نهاية الداعية، ص:.33
27-محمد رياض وتار، شخصية المثقف في الرواية العربية السورية،ص:.160
28-عبد المالك مرتاض، تحليل الخطاب السردي، معالجة تفكيكية سيميائية مركبة (رواية زقاق المدق)، دط، ديوان المطبوعات الجامعية، 1995، ص: .127
29-حسن بحراوي ، بنية الشكل الروائي، (الفضاء، الزمن، الشخصية)،ط2، المركز الثقافي، لبنان، 2009، ص:.213
30-المرجع نفسه، ص:.213
31-المرجع نفسه، ص:.210
32-ميخائيل باختين، شعرية دوستويفسكي، تر:جميل ناصيف التكريتي، دار توبقال، المغرب، 1986، ص:.72
33-محمد رياض وتار، شخصية المثقف في الرواية العربية السورية،ص:.164

34-مرشد أحمد، البنية الدلالية في روايات إبراهيم نصر الله، ط1، المؤسسة العربية للدراسات،لبنان، 2005، ص:45.

35-عبد الرحمان منيف، الأشجار واغتيال مرزوق، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ص:.29

36-المرجع نفسه،ص:.33

37-محمد يوسف نجم، فن القصة، ط1، دار صادر ،بيروت، 1996،ص:81.

38-عبد الرحمان منيف، الأشجار واغتيال مرزوق، ص:247.

39-المرجع نفسه،ص:.277

40- المرجع نفسه،ص:.267

41-قدور عبد الله ثاني، سيميائية الصورة، ط1،دار الوراق، الأردن،2008،ص:.113

42-صالح ويس،الصورة اللونية في الشعر الأندلسي،ط1،دار المجدلاوي، الأردن،2014 ،ص : 129 ،130.

43- عبد الرحمان منيف، الأشجار واغتيال مرزوق،ص:.205

44-48- المرجع نفسه،ص:.211

45- المرجع نفسه،ص:.235

46- المرجع نفسه،ص:.227

47- المرجع نفسه،ص:.206

48-49- المرجع نفسه،ص:.222

50- المرجع نفسه،ص:.210

51- المرجع نفسه،ص:.249

52- المرجع نفسه،ص:.33

53- المرجع نفسه،ص:.191

54- المرجع نفسه،ص:.268

55-المرجع نفسه،ص:.191

56-المرجع نفسه،ص:.227

57-المرجع نفسه،ص:286.

ثبت المراجع:

1- ابن منظور، لسان العرب، ج2،تحق: ايمن محمد عبد الوهاب، ط3، دار احياء التراث العربي، لبنان، 1999، ص:112.

2- إدوارد سعيد، خيانة المثقفين، تر:أسعد الحسين، دط، دار نينوى، سوريا، 2011،ص:.36

3- انطونيو غرامشي، رسائل السجن، تر:سعيد بوكرامي، ط1، دار طوى، لندن، 2014،ص:.56

4- برهان غليون، النخبة والشعب،ط1، دار بتر للنشر والتوزيع، سوريا، 2010،ص:.20

5- حسن بحراوي ، بنية الشكل الروائي، (الفضاء، الزمن، الشخصية)،ط2، المركز الثقافي، لبنان، 2009، ص:213.

6- عبد الإله بلقزيز، نهاية الداعية (الممكن والممتنع في أدوار المثقفين)، ط2، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، 2010، ص:.10
7- عبد الرحمان منيف، الأشجار واغتيال مرزوق، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ص:.29
36-المرجع نفسه،ص:.33
8- عبد السلام الشاذلي ،شخصية المثقف في الرواية العربية الحديثة بمصر(1834-1952)، دط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2009، ص:25-.26
9- عبد المالك مرتاض، تحليل الخطاب السردي، معالجة تفكيكية سيميائية مركبة (رواية زقاق المدق)، دط، ديوان المطبوعات الجامعية، 1995، ص: .127
10- عزمي بشارة المثقف والثورة،دط، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، ص:.9
11- علي حرب،أوهام النخبة أو نقد المثقف،ط3،المركز الثقافي العربي،الدار البيضاء،2004، ص:.146
12- علي الشريعتي ،مسؤولية المثقف، تر:إبراهيم الدسوقي شتا، ط1، دار الأمير ، لبنان، 2005، ص:.50
13- صالح ويس،الصورة اللونية في الشعر الأندلسي،ط1،دار المجدلاوي، الأردن،2014 ،ص : 129 ،130.
14- قدور عبد الله ثاني، سيميائية الصورة، ط1،دار الوراق، الأردن،2008،ص:.113
15- محمد عابد الجابري، المثقفون في الحضارة العربية، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، 1995، ص:.22
16- محمد الشيخ المثقف والسلطة، دراسة في الفكر الفلسفي المعاصر، ط1، دار الطليعة، بيروت، 1991، ص:.15
17- محمد يوسف نجم، فن القصة، ط1، دار صادر ،بيروت، 1996،ص:81.
18- مرشد أحمد، البنية الدلالية في روايات إبراهيم نصر الله، ط1، المؤسسة العربية للدراسات،لبنان، 2005، ص:45.